حسام الدين العتيقي

شيخ العلا

أ.د. عماد محمد العتيقي
كلية الهندسة والبترول - جامعة الكويت

الحمد لله الذي جعل لكل شيء سببا، وخلق الناس من ذكر وأنثى، وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا. وصلى الله على نبيه محمد وصفيه من خلقه وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد نتناول في هذا البحث شخصية علمية، وأديبًا شاعرًا، ورحالة ومعلمًا. طمست ذكره السنون، وتوارت أخباره في ثنايا القراطيس، مثلما غيبه موج البحر في ظلمته بعد حياة قصيرة ومثيرة. هذه الشخصية هي حسام الدين، حسين بن قاسم العتيقي الدرعي المغربي، من علماء السنة على المذهب المالكي، نشأ ودرس في وادي درعة بالمغرب، وارتحل في طلب العلم إلى فاس ثم إلى الشام، ثم حج البيت الحرام، وعند مروره بوادي القرى في طريق الحاج إلى المدينة، توقف في مدينة العلا، وتعرف إليه أهلها، فأحبوه وأحبهم، وطلبوا إليه أن يكون إمامًا لهم ومعلمًا لأولادهم، حيث كانوا على مذهب الإمام مالك؛ فاستقر في العلا بقية حياته. ونريد أن نلقي الضوء في هذا البحث على سيرة هذا العالم، حيث يمثل حلقة مهمة من حلقات التواصل العلمي بين المشرق والمغرب، عاش في مرحلة غامضة من مراحل تاريخ الجزيرة العربية، قلت فيها الأخبار وشحت فيها المراجع.

نشأته ونسبه:

ينسب حسين بن قاسم بن أحمد بن محمد العتيقي الملقب حسام الدين إلى العتيق أبي بكر الصديق، صاحب رسول الله ﷺ، وأحب الناس إليه وخليفته المختار من بين العالمين[١].

وعتيق هو اسم أبي بكر الصديق التيمي القرشي رضي الله عنه، كما جاء في المحبَّر[٢] وعند ابن سلام[٣]. وقد عرَّف المترجم له معاصره الحسن البوريني باسم "حسين بن القاسم المغربي العتيقي"[٤]. وافتتح المحبي ترجمته بقوله "حسين بن قاسم بن أحمد بن محمد الملقب حسام الدين المغربي الجَوْزي المالكي العتيقي الدرعي"[٥]. وقد عرَّف المترجم له أستاذه ابن القاضي[٦] بقوله "حسين بن أبي القاسم الملولي الدرعي"، وعرفه في موضع آخر باسم "حسام الدين الجوزي"[٧]. ويبدو واضحًا من مقابلاته مع البوريني والطبراني أنه اشتهر بلقب

(١) محمد أمين بن فضل الله المحبي "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر"، مخطوطة لدى مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة ضمن مكتبة عارف حكمت. رقم ٩٠٠/٩١. ورقة ١٧٧. وعزا المحبي هذه النسبة إلى مقابلة تمت بين المترجم له وبين القاضي عبدالكريم الطبراني الذي وثق هذا النسب بخطه في بعض مجاميعه، واطلع عليها المحبي لاحقًا.

(٢) أبو جعفر محمد بن حبيب "المحبَّر"، بعناية الدكتورة إيلزة ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت. ص ١٢.

(٣) أبي عبيد القاسم بن سلام "كتاب النسب"، تحقيق مريم محمد خير الدرع، دار الفكر، ١٩٨٩. ص ٢٠٨.

(٤) بدر الدين حسن البوريني "تراجم الأعيان في أبناء الزمان"، مخطوطة لدى مكتبة الملك عبد العزيز (مجموعة مكتبة عارف حكمت)، المدينة المنورة، رقم ٩٠٠/٦٢. ورقة ١٣٩.

(٥) محمد أمين المحبي، المصدر السابق. واعتمدنا على المخطوطة في تحقيق الألقاب إذ إن المطبوعة حُرِّف فيها لقب الجوزي إلى الجويزي.

(٦) أبو العباس أحمد بن أبي العافية المكناسي الفاسي الملقب بابن القاضي "درة الحجال في أسماء الرجال"، مخطوط لدى دار الكتب المصرية. القاهرة. ورقة ٤٢.

(٧) أبو العباس أحمد ابن القاضي "درة الحجال في أسماء الرجال"، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، الجزء الأول، دار التراث، القاهرة، ١٩٧٢م. ج٢. ص ٢٣٤.

العتيقي في المشرق على عادة العرب في الرجوع إلى اللقب الأعلى عند ارتحالهم، وهو اللقب الذي حملته ذريته بعد ذلك.

وهو أول من عُرف بلقب الجوزي من آل الصِّدِّيق هو جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق. وجعفر الجوزي هو الأب التاسع للإمام أبي الفرج بن الجوزي البغدادي صاحب التصانيف المتوفى ٥٩٧هـ. فهو جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبدالله بن حُمادَّى بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي نزيل البصرة(٨). وكان أحفاد أبي بكر الصديق يعيشون في المدينة المنورة قبل أن ينتشروا في البلاد، ومن أشهرهم القاسم بن محمد بن أبي بكر أحد الفقهاء السبعة بالمدينة.

وابنه عبد الرحمن أمه قُريبة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وكان فقيها من أعيان المدينة، وعبدالله بن عبدالرحمن أمه عاتكة بنت صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وكان قاضيا بالمدينة على عهد الخليفة العباسي المنصور ومحمد بن عبد الله كان قاضيا على المدينة في عصر المأمون(٩).

ويظهر من سلسلة نسبهم أن جعفر الجوزي قد استوطن البصرة في القرن الثالث الهجري. ومن أحفاد الصديق أيضًا بنو عبدالرحمن بن أبي بكر، ومن هؤلاء محمد وهو أبو عتيق له رؤية من النبي ﷺ، وابنه عبدالله من رواة الحديث وخرج له الشيخان، وابن عبدالله محمد روى الحديث أيضا وكان ثقة. وكان يقال لعبدالله ابن أبي عتيق نسبةً إلى أبيه، وقيل لمحمد بن عبدالله مثل ذلك نسبة إلى

(٨) عبد العزيز سيد هاشم الغزلي "ابن الجوزي"، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٠م. ص ١٨ .

(٩) الزبير بن بكار "جمهرة نسب قريش وأخبارها"، مطبوعات مجلة العرب، ج٢، ص٦١٢-٦١٤.

جده[١٠]. وقد عرفت ذرية أبي عتيق فيما بعد بالعتيقي كما ذكر السمعاني[١١].

ولد المترجم له في وادي درعا في أوائل صفر سنة ثمان وسبعين وتسعمئة. ووادي درعا أو درعة المنسوب إليه المترجم له من الأودية المعروفة بالمغرب. وكانت قرية درعة تقع جنوبي غربي المغرب إلى الغرب من سجلماسة، وبينهما أربعة فراسخ[١٢]. أما تسميته بالملولي فتحتمل عدة وجوه في إشارة إلى موطن أسرة المترجم له السابق على درعا. فنجد آيت ملول وهي إحدى نواحي أغادير بجنوب المغرب[١٣]، ونجد كذلك وادي ملولو وهو بشمال المغرب يتفرع من نهر ملوية إلى الشرق من تازة[١٤]. وأخيرًا هناك دار ملول وهي بلدة في إفريقية؛ أي في تونس الحالية، وتقع بين نقاوس وجبل أوراس والقلعة[١٥].

ولا نستبعد أن تكون دار ملول هي المحطة التي انتقلت منها أسرة المترجم له إلى درعا بعد ارتحالها من الشرق. ومن المناسب أن نشير إلى امتداد ذكر أسرة الجوزي في البصرة حتى وقت متأخر، إذ كان فيها لأحد شيوخهم وهو محمد الجوزي مقبرة معروفة تنسب إليه حتى القرن الحادي عشر الهجري[١٦].

(١٠) شمس الدين السخاوي "التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة"، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣. ترجم لأبي عتيق وابنه عبدالله وحفيده محمد. انظر ص ٨٢، ٥٠٠، ٥٠٩.

(١١) أبي سعد بن منصور التميمي السمعاني "الأنساب"، دار الجنان، بيروت، د. ت. ص ١٥٦.

(١٢) ياقوت الحموي "معجم البلدان". مطبعة الأسدي، طهران، ١٩٦٥م.

(١٣) المكتب الوطني المغربي للسياحة "الخريطة الطرقية للمغرب" د. ت.

(١٤) عبدالرحمن المؤدن "البوادي المغربية قبل الاستعمار". منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، رقم ٢٥، الرباط، ١٩٩٥م. صفحة الغلاف.

(١٥) محمد عبدالمنعم الحميري "الروض المعطار في خبر الأقطار"، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، ١٩٨٤م. ص ٢٣١.

(١٦) يحيى بن إبراهيم البصري "تمائم الدرر في مناقب السادة الغرر"، مخطوط بيد أخينا الدكتور أحمد السمدان. ورقة رقم ٢١٢،٢٣٥. والمؤلف من رجال القرن الحادي عشر.

شيوخه وإجازته :

تتلمذ حسام الدين على عدد من شيوخ المغرب الذين عاصرهم، ومنهم الشيخ الإمام أحمد بن علي المنجور الفاسي المتوفى ٩٩٥هـ، والإمام الحميدي المتوفى ١٠٠٣هـ والزموري المتوفى١٠٠١هـ والقدومي المتوفى ٩٩٢هـ. وأكثر عن الإمام الشيخ أبي العباس بن أبي العافية النجار المعروف بابن القاضي المتوفى ١٠٢٥هـ، فدرس عليه علوم اللغة والعروض والفرائض والحساب والفقه. وأجازه شيخه إجازة عامة سنة ١٠٠٠هـ(١٧) جاء فيها :

أجزت لكم ما قد رويت إجازة ... معممة في كل ما العبد قد حمل
وما صح عنه من نظام وما له ... من النثر والتأليف مع كل ما نقل
وفي كل مقروءٍ تثبت عندكم ... وفي كل مسموع بدا ما به خلل
وكل مجازٍ ثم كل مناول ... فدونك فارو العلم واقرنه بالعمل
وكاتب هذا أحمد بن محمد ... ويعرف بابن العافيةْ مكثر الزلل
بتاريخ ألف بعد هجرة مرسل ... عليه صلاة الله ما النجم قد أفل

وكان المترجم له قد طلب الإجازة شعرًا بقوله:

أراوية العلم الذي زانه العمل ... وكعبة أفضال يطوف بها الأمل
ويا دوحة الفضل الذي طاب مَحتِدًا ... وطاب نِجارًا وارتدى المجد واشتمل
عُبيدك بالنعمى حسين بن قاسم ... وقاه إله العرش من وقفة الخجل
بباب الهدى يبغي إجازة سيدٍ ... به يرتجي من ربه نيل ما سأل
ليشرب إذ يدعوك شيخًا وينتمي ... لجانبك الرحب السليم من الدغل
ويُنظم في سلك الذين تحملوا ... تفاريع هذا العلم عنك بلا خلل

وكان شيخه الشهير بابن القاضي يتمتع باحترام كبير في الأوساط العلمية في المغرب وله مؤلفات عديدة في فنون شتى من الفقه

(١٧) أبو العباس أحمد ابن القاضي "درة الحجال في أسماء الرجال" ج ١، دار التراث، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، ١٩٧٠م. ص ٥٣-٢٤٩ .

والفرائض والتاريخ والهندسة والتراجم بلغت ثمانية عشر مصنفًا منها "درة الحجال في أسماء الرجال"، و"غنية الرائض فى طبقات أهل الحساب والفرائض" و"جذوة الاقتباس فيمن حلّ من الأعلام بفاس" و"نيل الأمل فيما به بين المالكية جرى العمل" وغيرها(١٨). وهو صاحب مدرسة نبغ فيها علماء مثل أحمد بن محمد المقري، وعبدالواحد بن أحمد الأنصاري وأبو عبدالله محمد بن أحمد بن مياره(١٩). أما شيخه أحمد بن قاسم القدومي فهو أستاذ نحوي انتهت إليه رئاسة النحو في عصره(٢٠). وشيخه أبو العباس أحمد بن علي المنجور الفاسي خاتمة علماء المغرب المتبحر في كثير من العلوم خصوصا أصول الفقه، وُصف بالمحقق الفاضل العلامة العمدة الكامل صاحب المصنفات(٢١). وشيخه أبو العباس أحمد الزموري وصف بالإمام الفقيه الشيخ الكامل العالم العامل(٢٢). وشيخه أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الحميدي هو قاضي الجماعة بفاس الفقيه العالم الصدر الإمام الذى لا تأخذه في الله لومة لائم(٢٣)، وكانت جنازته مشهودة، وصلى عليه الشيخ يحيى بن محمد السراج المتوفى ١٠٠٧هـ.

البيئة العلمية التي عاش بها :

كما سبق ذكره فإن الشيخ حسين ولد في درعا وهي من المدن العلمية المهمة في المغرب. وتشتهر درعا حتى اليوم بالزاوية الناصرية التي ضمت مكتبتها حسب إحصاء سنة ١٣٩٣هـ قرابة ٤٢٠٠ مصنف

---

(١٨) أبو العباس أحمد ابن القاضي، المرجع السابق.

(١٩) أبو العباس أحمد ابن القاضي، المرجع السابق.

(٢٠) أبو العباس أحمد ابن القاضي، المرجع السابق.

(٢١) محمد بن مخلوف "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية". دار الكتاب العربي، د. ت. ص ٢٨٧.

(٢٢) محمد مخلوف. المصدر السابق. ص ٢٩٤.

(٢٣) محمد مخلوف. المصدر السابق. ص ٢٩٤.

بين مخطوط ومطبوع(٢٤). وقد سبق ولادة المترجم له في القرن العاشر بروز علماء عدة نابغين وأصحاب مدارس في هذا الوادي، نذكر منهم عبدالله بن عمرو المضغري المتوفى سنة ٩٢٧هـ، ويوصف المضغري بأنه فقيه درعة وحافظها، وهو شيخ محمد المهدي الشريف السعدي مؤسس الدولة السعدية(٢٥). ومنهم أبو القاسم بن عمر التفنوني الدرعي المتوفى بها سنة ٩٥٣هـ، وموضع مدرسته هو "زاوية سيد الناس" بقرب الزاوية الناصرية بتمكروت(٢٦). وكان التفنوني بارعًا في علوم الدين والحساب والصناعات اليدوية. ومنهم أيضًا محمد بن علي بن محمد الجزولي البكري، ثم الدرعي التمكروتي المتوفى بها حوالي ٩٦٠هـ(٢٧). وكان البكري المشار إليه جليل القدر صاحب مدرسة متميزة، وكان هو ووالده مؤسسين لأسرة علمية معروفة في ذلك الوقت(٢٨).

لا شك أن هذه البيئة العلمية بمدارسها المتنوعة كانت بيئة طيبة لتلقي العلوم الأولية، ولكنها لا تقارن بفاس وما فيها من مدارس ونشاط علمي، مما دفع بحسين المترجم له للسفر إليها. وكانت فاس في الصدارة العلمية في ذلك الوقت ومنذ قرون عدة وخاصة في الفقه على مذهب الإمام مالك رحمه الله، وكان حسين يتلذذ بهذا الجو العلمي ويصرح بحب فاس وأهلها من العلماء، ومن ذلك ما نظمه مضمنًا(٢٩):

أعاذلتي في حب فاس وأهلها ... ذريني فليس العذل يشفي من الوجدِ
بلادٌ بها قد هام قلبي وإن نأتْ ... بجسمي عن أكنافها أينُقُ البعد

(٢٤) محمد المنوني "دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت"، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٤٠٥هـ الموافقة ١٩٨٥م، ص ٢٩.
(٢٥) محمد المنوني، المصدر السابق، ص ١٣.
(٢٦) محمد المنوني، المصدر السابق.
(٢٧) محمد المنوني، المصدر السابق.
(٢٨) محمد المنوني، المصدر السابق.
(٢٩) أبو العباس أحمد بن القاضي. المصدر السابق. ص ٢٥٣.

ولإعطاء القارئ صورة نسبية عن مراكز فقه المالكية في ذلك الوقت نقول: إن طبقة شيوخ المترجم وهي الطبقة العشرون اشتملت على أربعة علماء من الحجاز، وتسعة من مصر، وخمسة من أفريقيا (تونس) وواحد وثلاثين عالما من فاس(٣٠). ويتضح بذلك غزارة الجو العلمي الذى عاش فيه المترجم والدور القيادي الذى لعبته فاس في تطوير الفقه المالكي. ومن الجدير بالذكر أن مولد المترجم كان بعد حوالي ثمانين سنة من سقوط مملكة غرناطة الإسلامية على يد القشتاليين سنة ٨٩٧هـ(٣١). وهي الفترة التي لجأ فيها الكثير من أهل الأندلس وعلمائها إلى بلاد المغرب ونقلوا الكثير من علمهم وفنونهم. وفي القرن نفسه امتدت سيطرة الدولة العثمانية إلى بلاد المغرب وشمال أفريقيا مع استمرار تحديات الصليبيين من أسبان وغيرهم من الفرنجة.

صفاته الشخصية:

أسهمت العوامل السياسية والفكرية السائدة ذلك الوقت في صقل شخصية حسام الدين في جو علمي وأدبي رصين، وجو سياسي مفعم بالتحديات والجهاد. ولذلك وصفه محمد مخلوف في طبقات المالكية بأنه "الإمام الأديب الألمعي الشاعر المفلق العلامة الرحال"(٣٢).

ووصفه الشهاب الخفاجي(٣٣) بأنه "أديبٌ حسام طبعهُ مُرهف، ومَشْرَفيُه بحلى الآداب والعلم مشرّف". وقال فيه أيضًا: "فهو روضٌ تُقبِّلُ الأرضَ فيه ثغورُ الزهور، وتُطرّزُ بُرودُ الآداب بمالهُ من المنظوم والمنثور".

(٣٠) محمد مخلوف، المصدر السابق.

(٣١) محمد عزة دروزة "مختصر تاريخ العرب والإسلام" الجزء الثاني، المطبعة السلفية، مصر، ١٣٤٢هـ، ص ١٨٠.

(٣٢) محمد مخلوف، المصدر السابق. ص ٢٩٤.

(٣٣) شهاب الدين أحمد الخفاجي "ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا". تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو. مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٧. ص ٣٦٣.

وتدل العبارات السابقة على ما كان يتحلى به المترجم من تقدير واحترام لدى معاصريه وتلاميذهم ممن ترجموا له، وعلى إمامته ونبوغه في ميدان الأدب والشعر.

ومن صفاته الوفاء لإخوانه وأصدقائه والتواصل معهم على الرغم من تباعد الديار. ومن ذلك أنه بعد أن ارتحل من المغرب إلى بلاد الروم (أي القسطنطينية) ثم إلى دمشق سنة خمس وألف، كان له مراسلات مع صديقه محمد بن علي الفشتالي(٣٤) (سفير وكاتب الملك المنصور أحمد سلطان المغرب بمراكش). فلما استبطأ الرد كتب إليه قائلاً ومعاتبًا:

عليك أخاف يا مولى الكتابةْ ... ودادًا بالصدود سددت بابه
وما ذنب المُغَرّبِ معك حتى ... تضاع ذمامه بجفا أرابه

فكتب إليه الفشتالي جوابًا وهو قوله :

أعيذك من ظنون واسترابه ... بنيت قبابها فوق الضبابه
بروق تحت راعدة بصيفٍ ... تثير سحابها ريح الكتابه
تهدد من أخيك بريء عيب ... يفر من السرور إلى الكآبه
وعند الله مجمع كل حق ... وما كلّ الدعاء بذي استجابه

وروى أيضًا الشهاب الخفاجي(٣٥) عن صاحبه محمد بن إبراهيم الفاسي أن المترجم له أنشده لنفسه مضمنا، يخاطب محمد بن يعقوب الأندلسي:

ولي صاحبٌ قد هذبت لي يدُ الصفا ... مودته في غيبة وعيان
ولكن هوائي مع هواه تخالفا ... تخالف رؤيا السجن للفتيانَ

(٣٤) محمد أمين المحبي، المصدر السابق.

(٣٥) شهاب الدين أحمد الخفاجي، المصدر السابق، ص٣٦٤. ومحمد بن إبراهيم الفاسي المشار إليه من الشعراء المجيدين، ترجم له الخفاجي في المصدر نفسه، ووصفه ببديع الزمان وبالممتع.

فيهوى بني نجد ولين خصورهم وأهوى بناتِ الغَور طول زماني
يذكرني حالي وإياه قولهُ "رفيقك قيسيٌ وأنت يماني"

وكان أقرانه وشيوخه يشهدون له بالشهامة والمروءة، فقد روى شيخه ابن القاضي من نظم محمد الفاسي المتقدم ما مدح به حسام الدين قائلاً(٣٦):

إذا ما الدهر جار عليك جاورِ حسام الدين محمود الكرام
ولا ترهب عدوًا أو عذولاً وكيف وقد لجأت إلى الحسامِ

ومن صفاته أيضا الوقار والفضيلة. قال النجم الغزي: "كان محمد أمين (دفتري دمشق) يعظمه ويصفه بالفضيلة، فلما اجتمعنا به وجدناه كما وصف فاضلاً علامة يعرف العربية بأنواعها ويحفظ كثيرًا"(٣٧).

وكان المترجم له يتبادل الشعر مع شيخه ابن أبي العافية الذي كان شاعرا مجيدا أيضا. ومما خاطب به شيخه قوله(٣٨):

بشعلة من شهابه أحرقَ كل حسودِ
فهو الملاذ المنيع أحصنُ لي من زرودِ

ويلحظ أن احترامه لشيخه والتصاقه به دفعه إلى المبالغة في إطرائه. فأجابه شيخه وكان يلقبه حسام الدين بقوله :

قُلدتَ للمجد سيفا صلتَ به في الأنام
ولا غريب لأني محصنٌ بالحسام

(٣٦) أبو العباس أحمد ابن القاضي "درة الحجال في أسماء الرجال"، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور، الجزء الثاني. دار التراث. القاهرة. ١٩٧٢م. ج٢. ص ٢٣٤.

(٣٧) أبو المكارم محمد نجم الدين الغزي "لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر". مخطوطة لدى مكتبة الملك عبد العزيز، المدينة المنورة. (رقم ١٨٨/٩٠٠). ورقة ٦١.

(٣٨) أبو العباس أحمد بن القاضي، المصدر السابق. ج١. ص٢٥٠.

ومن صفاته أيضا الزهد في الدنيا، ومما أنشد في ذلك (لغيره)[٣٩]:

هوتْ أُمُّهُ ما يبعث الصبح غاديًا ومــاذا يؤدي الليل حين يؤوبُ
هوت أمه مـاذا تضمن رحلهُ من الجود والمعروف حين ينوبُ

وكان الشيخ حسين يعشق الكتب والمطالعة، ومن ذلك ما أنشد لشيخه ابن القاضي (لغيره) في المطالعة[٤٠] :

لنا جلساء ما يُمل حديثهم ألباء مأمونون غيبًا ومشهدا
يفيدوننا علمًا وأخبار من مضى وعقلا وتأديبا ورأيا مسددا
فلا فتنة تخشى ولا سوء عشرة ولا نتقي منهم لسانا ولا يدا
فإن قلت أحياء فما أنت كاذب وإن قلت أمواتًا فلست مفندا

رحلاته :

ارتحل المترجم له من المغرب إلى عاصمة الأتراك العثمانيين وهي القسطنطينية وأقام بها مقدار نصف سنة. وبعد ذلك ارتحل إلى الشام بصحبة ملا محمد أمين السابقي الجعفري الطياري دفتري دمشق[٤١]، والتقى شيوخها وعلماءها مثل النجم الغزي والحسن البوريني. وكان قدومه دمشق سنة خمس بعد الألف. وممن اجتمع به القاضي عبد الكريم الطبراني وهو الذي وثق مولده ونسبه ومشايخه

(٣٩) أبو العباس أحمد بن القاضي، المصدر السابق. ج١. ص ٢٥١.

(٤٠) أبو العباس أحمد بن القاضي، المصدر السابق. ج١. ص ٢٥٢.

(٤١) محمد أمين أفندي السابقي الجعفري الطياري من أعيان دمشق. ومنصب الدفتردار الذي كان يتولاه من المناصب الرفيعة في الدولة العثمانية، وهي تعادل وزير المالية. ذكره الحسن البوريني في مقدمة مصنفه "تراجم الأعيان من أبناء الزمان"، ووصفه بأنه "صاحب الذات المأنوسة الكامل في ذاته، الممدوح في جميع صفاته" وأكثر في مدحه بالفضائل والمناقب. وقد كان تأليف البوريني لمصنفه المذكور بناءً على طلب من محمد أمين أفندي. انظر مقدمة البوريني في تراجم الأعيان، المصدر السابق - ورقة ٢.

في بعض مجاميعه كما مر ذكره. ثم خرج من دمشق حاجًا سنة ١٠٠٥هـ، وعند مروره بمدينة العلا وهي بوادي القرى شمال المدينة المنورة، التقى أهلها الذين كانوا على المذهب المالكي، فحصل بينه وبينهم مودة ومحبه، وأقبلوا عليه وطلبوا منه أن يتولى الإمامة والخطابة، فقام بذلك. وكان بالإضافة إلى ذلك يتولى الإفتاء لهم على مذهب الإمام مالك ويعلم أطفالهم مبادئ الدين والعربية وما إليها، فاستقام بمدينة العلا بقية حياته. ويبدو أنه قام برحلات أخرى إلى مصر والروم (إستانبول)؛ حيث التقى القاضي شهاب الدين الخفاجي الذي ترجم له في كتابين له[٤٢].

أعماله ومآثره :

أول ما عرف من أعماله تولي القضاء في مدينة سلا من نواحي مراكش عاصمة المغرب في ذلك الوقت[٤٣] لصالح الشريف السعدي أحمد المنصور ملك المغرب. فلما قدم مصر اتصل بالشهاب الخفاجي القاضي الذي أُعجب به كثيرًا، ولما دخل دمشق تردد على علمائها مثل النجم الغزي والحسن البوريني في مدرسته الناصرية وأنشد لهم كثيرًا من شعر المغاربة. ويبدو أن صداقته مع محمد الفشتالي كاتب المنصور تطورت في تلك الفترة؛ حيث كان الثلاثة من أرباب الشعر والأدب وكان الفشتالي زميلا له في الدراسة.

ويُعدّ المترجم له مصدرًا من مصادر شعر المغاربة وأخبارهم في المشرق، وساعدته حافظته القوية ومهارته اللغوية على نقل بعض ذلك التراث، ومما حفظ لنا مقطوعات من شعر الملك المنصور أنشدها له بمقره في مراكش، منها قوله[٤٤]:

لا ولحظ سلَبَ السيف المضا   وثنايا مثل درٍ أو بَرَدْ

(٤٢) محمد أمين المحبي. المصدر السابق.

(٤٣) أبو العباس أحمد بن القاضي، المصدر السابق. ص ٢٤٩.

(٤٤) النجم الغزي. المصدر السابق.

مـا هـلال الأفق إلا حـاسـدٌ   لعـلاها وبهـاها والغِـيَـدْ
فلذا أمسـى ضـئـيـلاً ناحـلاً   كيف لا يَفنى نُحولاً من حَسَدْ

ومنها أيضًا قوله الذي وصفه البوريني معجبًا به أنه: "يفوق على قلائد النحور"(٤٥):

من عنبر الشحر أو من مسك دارين   بلى ومنه نسـيـمـات الرياحينِ
مـهفهفٌ إن تثنى قلتُ مـقتضبٌ   من قضب نعمان أو من كثب يبرينَ
إذا تبـسم خلت الدر منتظمًـا   تحت العقيق وورد فوق نسرين
وإن رنا فـسـهـامٌ من لواحظه   لهـا بشَقِ قلوب أي تمكينِ

ومن أعـمـاله الرحلة في الدعـوة إلى الحق وإنكار المظالم؛ فـمن المؤكد أن رحلاته إلى الروم (إستانبول) ومصر اشتملت على هذا الجانب، حيث كان يتبادل الحديث والمعلومات عن ظلم الحكام مع أصحابه الذين يلتقي بهم في رحلات الحج مثل: النجم الغزي، ومحمد بن العجيمي البخاري قاضي جبلة وزبيد باليمن(٤٦). ولكن المراجع المتوفرة لا تسعفنا بذكر شيء عن رحلاته سوى النادر.

وأثناء إقامته بالعلا خرجت عندهم عين ماء قرب البلدة، فخرج إليها حسين المترجم له فوجدها ممكنة الوصول إلى المدينة، وأشار على أهلها أن يشقوا لها مجرى إلى بعض السهول المحيطة بالمدينة، فقاموا بذلك وأشرف حسين على شق القناة وأحيا بها أراضي كثيرة كانت مجدبة، فأصبحت مزارع غناء وحدائق خضراء. وفرح أهل العلا بذلك فرحًا شديدًا، ورأوا أن ذلك بركة ساقها الله على يديه وأسهموا له في الأرض، فأحيا بها أراضي كثيرة وحصل له بذلك نعمة سابغة ومال وفير. وتُعرف العين المذكورة آنفا في الوقت الحالي

(٤٥) النجم الغزي. المصدر السابق.
(٤٦) النجم الغزي. المصدر السابق.

بعين جاسم أو العين الجاسمية أو عين السبسبي، ومجرى هذه العين معروف لدى أهل العلا وكانت تسقي مزارع كثيرة(٤٧). ويبدو أن تسميتها بعين جاسم أو الجاسمية هي نسبة إلى جاسم بن حسين المترجم له، وعرب الجزيرة يقلبون القاف جيما. وأخبرني أحد أبناء العلا أن هذه العين كانت تمتاز عن بقية عيون العلا بأن ماءها بارد في الصيف ودافئ في الشتاء، والسبسب في اللغة هو الماء الجاري(٤٨).

مدينة العلا:

مدينة العلا هي من المدن الواقعة شمالي المدينة المنورة، وتقع في وادٍ بين سلاسل جبال تمتد من الشمال إلى الجنوب. وكان هذا الوادي يعرف منذ القدم باسم وادي القرى، ويحمل أهمية تاريخية عظمى؛ فقد توالت على هذا الوادي حضارات متعددة، حيث يقع في منطقة استراتيجية تصل شمال الحجاز والشام بجنوب الحجاز واليمن. ومن أشهر الدول القديمة التي سادت في هذا الوادي مملكة ديدان التي سادت في الألف الأول قبل الميلاد. بعد ذلك قام على أنقاض هذه الدولة مملكة لحيان ثم حكم الأنباط حتى ١٠٦م عندما سقطت دولة الأنباط بيد الرومان، وعاد اللحيانيون لحكم ديدان حتى القرن الثالث الميلادي عندما خربت مدينتهم وهجرت، وأصبحت تعرف بالخريبة. وقام على أنقاض هذه المدينة ما يسمى بمدينة "قرح" التي بدأت شهرتها تذيع في عصور ما قبل الإسلام كسوق من

(٤٧) عبد الله بن محمد نصيف. إفادة شخصية. ويرى الدكتور نصيف أنه من المحتمل أن تكون أرض الحسيني التي في مزارع تدعل منسوبة إلى الشيخ حسين. ومن المحتمل أيضًا أن تكون أرض الصفراء الموجودة هناك مما استصلحه الشيخ حسين أيضًا، حيث ذكر "الصفرا" أحد كبار السن من أسرة العتيقي فيما سمعنا.

(٤٨) منصور بن عبد المحسن القبل "محادثة خاصة " أغسطس ٢٠٠٠م. ومن الطريف أن يطلق لقب الجاسمية أيضًا على جدة عدد كبير من أفراد أسرة العتيقي نسبة إلى جدها جاسم العتيقي.

أسواق العرب، ثم ازدهرت في صدر الإسلام كحاضرة من حواضر الحجاز المهمة.

وقد ذاعت شهرة وادي القرى أو قرح منذ فجر الإسلام وحتى أواخر الدولة العباسية إبان القرن السادس الهجري عندما خربت وأصبحت آثارًا. بعد ذلك بدأت مدينة العلا القديمة والمعروفة الآن "بالديرة" في الازدهار حيث إنها تقع في موقع حصين في أضيق نقطة في الوادي.

وبالرغم من أن موضع العلا معروف في السيرة حيث توقف فيه الرسول ﷺ في طريقه إلى تبوك، إلا أنه كان لا يتجاوز عين ماء في ذلك الوقت. بدأت أخبار العلا في الظهور منذ القرن السابع الهجري، ويعدّ بناء مسجد الصخرة (مسجد ابن يسرة) سنة ٧٨٠ هـ أحد أهم المعالم التاريخية لهذه المدينة. وقد زار هذه المدينة منذ القرن السابع عدد من المؤرخين العرب والأجانب ووصفوا تخطيطها الحضاري والمعماري وصفًا دقيقًا، منهم ابن بطوطة الذي زارها سنة ٧٢٦هـ، ومحمد كبريت المدني في ١٠٧٠ هـ، وذكر أن فيها عينين تجريان كما ذكر الدكتور نصيف[٤٩]. ويبدو من المؤكد أن إحدى هاتين هي عين "تدعل" الشهيرة والمعروفة منذ ما قبل الميلاد، والعين الأخرى هي عين السبسبي أو عين جاسم التي خرجت حوالي ١٠٠٦هـ. وقد زار العلا الأثريان الفرنسيان جوسين وسافيناك ١٩٠٩م، ورسما خريطة دقيقة لها نشرها الدكتور نصيف في كتابه المشار إليه سابقا. وتعميمًا للفائدة نعيد نشر هذه الخريطة (شكل رقم ١) مع إضافة موقع مخرج (مشرع) عين جاسم في المزارع ومسار قناتها التي شقها الشيخ حسين بمعونة أهل البلدة[٥٠].

(٤٩) عبد الله بن آدم نصيف، العلا، دراسة في التراث الحضاري والاجتماعي، الرياض ١٩٩٥م. ص ٥٠.

(٥٠) عبدالله بن آدم نصيف، المرجع السابق. ص ٥٥.

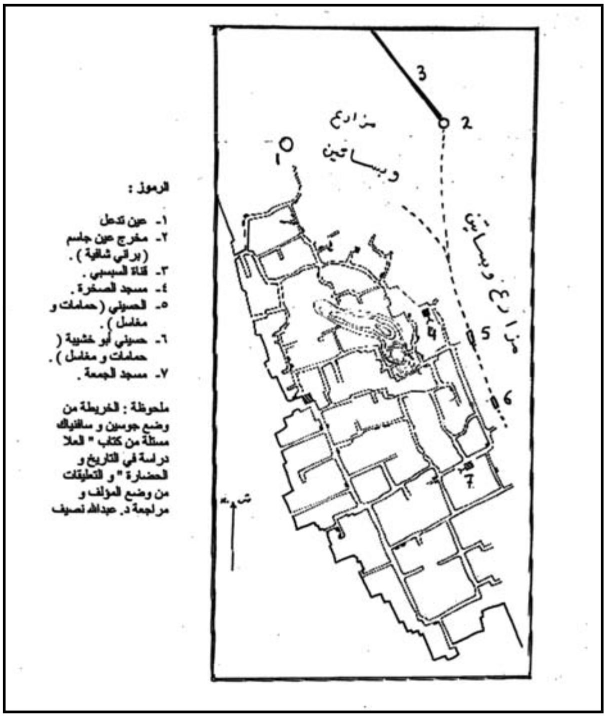

شكل رقم (١)

مخطط مدينة العلا القديمة وبعض معالمها المشار إليها في البحث.

ونوضح في (لوحة رقم ١) موقع مخرج العين الحالي، ويقع قريبًا من مسجد ابن يسرة الموضح في (لوحة رقم ٢) إلى الشمال الشرقي منه. ونرجّح أن هذا المسجد كان مقر إمامة الشيخ حسين لقدمه وقربه من المزارع. وتقوم حاليًا مؤسسة التراث بإعادة بناء هذا المسجد التاريخي على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز. ويلحظ أن منبع العين الذي يسمى بقيرة السبسبي يقع إلى الشمال من حي الديرة في حي الجديدة وموقعه مباشرة جنوب مسجد الجمعة بالجديدة[٥١].

(٥١) عبدالله بن محمد نصيف، إفادة شخصية.

لوحة رقم (١)

موقع مخرج أو مشرع عين جاسم (الجاسمية) في مزارع العلا.

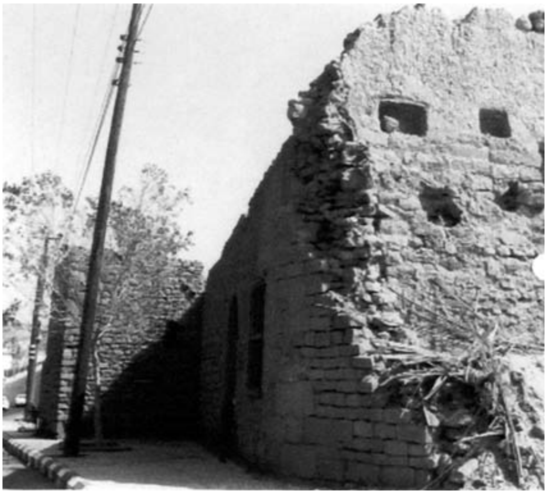

لوحة رقم (٢)

مسجد الصخرة (ابن يسرة) كما بدا في جمادى الأولى ١٤٢١هـ، قبل ترميمه.

ومنذ القرن السابع وحتى نهاية القرن الرابع عشر الهجري كانت هذه المدينة الصغيرة ببساتينها وحدائقها حاضرة مزدهرة. وقد انتقل معظم أبناء العلا في مطلع القرن الخامس عشر من الموضع القديم المسمى بالديرة إلى ضواحي فسيحة شمال وجنوب الديرة. وقد لحظت أثناء زيارتي للعلا أن معظم البساتين المقابلة للديرة قد هجرت بسبب نضوب العيون بعد دخول الآبار الارتوازية العميقة، كما هو موضح في لوحة (رقم ٣). كما أن منطقة الديرة القديمة خالية من السكان تمامًا وتصلح للسياحة الأثرية. وتنتشر اليوم في العلا وحولها مناطق زراعية شاسعة وقرى (هجر) عديدة.

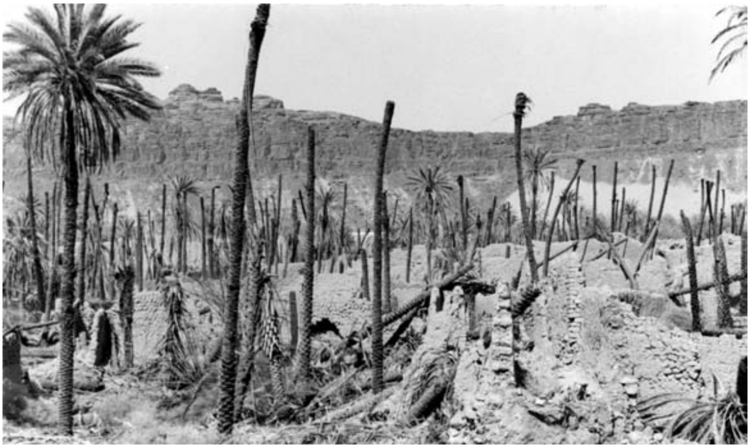

لوحة رقم (٣)

منظر عام لمزارع تدعل القديمة

أما سكان العلا القديمة فيتألفون من عشائر عربية عريقة استوطنت فيها ابتداء من القرن السابع وعددها خمس عشرة عشيرة. والسكان الحاليون للعلا خليط من العشائر القديمة الأصلية وأبناء القبائل الذين انضموا في أوقات متفرقة، وغيرهم من الذين

توافدوا من مناطق مختلفة. كما يلحظ الاهتمام الكبير من قبل أبناء العلا بالمساجد، فلا يكاد يخلو موضع من مسجد على بعد خطوات. كما لحظت أثناء رحلتي المشار إليها سابقًا أن أهل العلا يتمتعون بأريحية راقية وكرم فائق، فلا يكاد يلحظ أحدهم أنك غريب حتى يطلب منك وبإلحاح الزيارة والضيافة. وقد سجل هذه الملحوظة معظم الرحالين الذين مروا بهذه المدينة. كل هذه العوامل، وهي المحتوى الثقافي والديني والاجتماعي الراقي الذي يتمتع به أهل العلا تفسر التجانس الذي حصل بين المترجم له حسين وأهل العلا، وكيف أنه اختار الإقامة فيها وتعليم أبنائها.

وفاته :

كان مستقر المترجم له بالعلا في طريق الحاج الشامي إلى المدينة. وكان النجم الغزي يأنس إليه فى رحلاته إلى الحج، وقد ذكر قصة وفاته فيما نوجزه هنا(٥٢)؛ ففي إحدى حجج الغزي سنة سبع بعد الألف قص عليه حسين قصة العين وأنشده قائلا لنفسه :

أرى غارة الأقدار للمرء لاحقه ... ولو فرَّ منها راكبا متن شاهقه
وما خُط في أم الكتاب تسوقه ... إليه المقادير التي هي سابقه
فلا ذاق من صاب التغرب من بكى ... على مغربيٍّ ضاع بين مشارقه

قال الغزي: "فعاتبته على ذلك وقلت له: ما ضعت بين المشارقة، بل شاع ذكرك وذاع نشرك وسما قدرك، فما أنصفت فيما قلت".

فاعترف بذلك حيث حصلت له في العلا السيادة والتقدير، كيف لا وقد جمع بين الإمامة والخطابة والفتيا والتعليم ثم أضاف إلى ذلك بإذن الله خبرته في الري واستصلاح الأراضي، وحصل له القبول التام من قبل أهل العلا حتى إنهم كانوا لا يصدرون إلا عن

(٥٢) النجم الغزي. المصدر السابق.

رأيه وصار من أكثرهم ثراء. ولكن ذلك كله لم ينسه مجالس العلم في فاس ودمشق المليئة بالعلماء المتبحرين في كل فن ولون، وهاهو يقطن في بلدة صغيرة تخلو من العلماء.

ثم زاره النجم الغزي مرة أخرى في سنة ثمان بعد الألف فتسامرا وتآنسا. فلما عاد الغزي إلى الحج في سنة عشرة وجده قد سافر إلى الروم؛ أي للقسطنطينية، وفي السنة التي تليها وهي إحدى عشرة في أواسط ذي الحجة، جاء الخبر إلى الحجيج في مكة أن حسينًا قد غرق في بحر جدة في المركب المعروف بالخاصكية في الشهر الذي قبله أي ذي القعدة. والخاصكية أو الخاسكية هي المركب المخصص لسفر الحرس الخاص للسلطان العثماني. وهكذا تحقق ما صاغه شعرا، وأشار إلى ذلك الغزي بقوله: "فلحقته غارة الأقدار وساقت إليه المقادير ما خط في أم الكتاب"[٥٣]، وذهب شهيدا في مساعيه لنشر الدعوة التي فرغ لها حياته وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة.

ذريته:

أشهر علمائهم في الماضي الشيخ سيف بن حمد بن محمد العتيقي النجدي[٥٤] المتوفى ١١٨٩هـ من علماء المجمعة في سدير. وكان في الوقت نفسه إماما لمسجد السليمية في بلدة حرمه من إقليم سدير[٥٥]. وللشيخ سيف عدة أبناء منهم ابنان عالمان هما صالح ومحمد. ومن علمائهم في الماضي أيضًا سيف بن محمد العتيقي أحد شيوخ عبدالجبار البصري[٥٦].

---

(٥٣) النجم الغزي. المصدر السابق.

(٥٤) د. عماد محمد العتيقي "دليل إنشاء وتحقيق سلاسل الأنساب"، الكويت. ٢٠٠١م. ص ٣٤-٣٥.

(٥٥) عبد الله بن عبد الرحمن البسام "علماء نجد خلال ثمانية قرون". دار العاصمة. الرياض ١٩٩٨م. ص ١٦-٤١٥ .

(٥٦) عبدالله بن عبدالرحمن البسام، المصدر السابق. ص ١٨-٤١٧ .

وقد أشار محمد بن سيف إلى مدينة العلا وأهلها في مطلع قصيدته المسماة بنظم الجواهر بقوله(٥٧):

أرى المجد صعبا غير سهل التناول شديدا أبيا معجزا للمحاولِ
بعيد مرام نادرًا من يحوزه يشق على أهل الدنايا الأراذلِ
وأهل العلا قد نافسوا في اكتسابه فكانوا به أحياء تحت الجنادلِ
فلا مجد إلا باهتمام ورغبةٍ وقوة عزم في اكتساب الفضائلِ

ويذكر أن الشيخ محمد بن سيف العتيقي استقر في آخر حياته بالمدينة المنورة قبل أن يتوفاه الله حوالي سنة ١٢٢٤هـ(٥٨). ومن علماء العتيقي أيضًا عبدالعزيز بن حمد بن سيف العتيقي النجدي ثم الكويتي، وهو من أقران الشيخ عبدالعزيز بن عثمان بن عبدالجبار والشيخ عثمان بن منصور(٥٩). ومنهم أيضًا الشيخ إبراهيم بن محمد بن سليمان بن حمد بن سيف المتوفى سنة ١٣١٥هـ، وكان قاضيًا بناحية سدير مدة طويلة(٦٠). ومنهم الشيخ عبدالعزيز بن محمد بن عبدالعزيز بن محمد بن سليمان الذي كان مستشارًا للملك عبدالعزيز آل سعود - رحمه الله - في بداية حكمه، وكان أيضًا مديرًا لمعارف البحرين وصاحب مدرسة خاصة في المجمعة، ثم مديرًا لبعض مدارس الكويت(٦١).

(٥٧) محمد بن سيف العتيقي "نظم الجواهر في النهي والأوامر". دار البشائر بيروت ١٩٩٩م.
وقد حُرفت كلمة "العلا" في النسخة المطبوعة فجاءت "العلى" خلافًا للمخطوطة، فلزم التنويه. انظر ص ١٩، ٢٣.

(٥٨) د. عماد بن محمد العتيقي "علماء آل عتيقي خلال ثلاثة قرون". الدارة. س ٢٥. العدد الرابع. ١٤٢١هـ. ص ٨٧-١٢٨.

(٥٩) بيت الزكاة - دولة الكويت "محسنون من بلدي"، ج٣، ٢٠٠١م. وبه ترجمة وافية للشيخ عبدالعزيز بن حمد العتيقي ص ٧١-٨١.

(٦٠) د. عماد بن محمد العتيقي. المصدر السابق.

(٦١) د. عماد بن محمد العتيقي. المصدر السابق.

ويتركز أفراد هذه الأسرة حاليًا في الكويت والمملكة العربية السعودية، وعميدها هو معالي السيد عبدالرحمن بن سالم بن عبدالله بن حمد بن عبدالمحسن العتيقي - حفظه الله - وهو مستشار أمير دولة الكويت وكان قبل ذلك وزيرًا للمالية ووزيرًا للنفط.